التصوير القرآني للنفسية اليهودية

دراسة تحليلية

د. أيمن السيد علي الصياد(*)

ملخص البحث

يحاول هذا البحث الكشف عن ملامح النفسية اليهودية التي التصقت باليهود منذ القدم إلى وقتنا الراهن، وساهمت بشكل رئيس في إنتاج نفسية مريضة، لها معالمها المحددة، وأطماعها المعروفة من خلال دراسة تحليلية تستخدم المنهج التحليلي لرصد السمات النفسية لبني يهود في ضوء الصورة القرآنية، ونصوص من التوراة، وذلك من خلال الكشف عن: صورة التناقض في النفسية اليهودية، وصورة هوى النفس والإصرار على المعصية، وصورة العنف في مرآة اليهود، والصورة الساخرة للسلوك اليهودي، وصورة صناعة الأعداء والبحث عن الأمان، وصورة «الأنا» المتعالية وفقدان الثقة، وصورة التخبط العقدي والانحراف الأخلاقي، ثم تأتي الخاتمة للكشف عن أهم النتائج، ثم مصادر البحث ومراجعه.

(*) أستاذ الأدب العربي المشارك - كلية المجتمع - جامعة طيبة.

مقدمة البحث

الحمد لله حمد الذاكرين، والشكر لله شكر الزاهدين، والدعاء والتوسل والرجاء بأن نكون من عباده المتقين، وبشفاعة المصطفى ﷺ من الفائزين ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [الأحقاف: ١٣].

نتناول خلال هذا البحث «التصوير القرآني للنفسية اليهودية»؛ إذ تعدَّدت وسائل القرآن الكريم في الكشف عن عديد من السِّمات النفسية لليهود، التي التصقت بهم منذ القدم إلى وقتنا الراهن، وساهمت بشكل رئيس في إنتاج نفسية مريضة، لها معالمها المحددة، وأطماعها المعروفة. والقرآن حين يتحدث عن اليهود لا يتوقف عند ظاهر الشخصية، وإنما كان الهدف الأسمى من وراء هذا التصوير الأدبي المعجز، الكشف عن أغوار هذه النفسية المعقدة التي امتلأت بمتناقضات عديدة، حيَّرت علماء النفس والاجتماع والأدب.

يحاول البحث من خلال المنهج التحليلي الفني رَصْدَ السِّمات النفسية للشخصية اليهودية في ضوء آيات القرآن الكريم، ونصوص من التوراة، في محاولة للتوصل إلى الأُطر العامة للصورة القرآنية خلال استعراضها للنفسية اليهودية، واستكشاف الروابط المشتركة بين سمات الشخصية اليهودية المعروفة للكثيرين - والمتكررة الوصف في عديد من الكتب والأبحاث- من خلال دقة النظم وروعة الخيال(١).

لقد تعددت الأسماء والصفات حول تلك الشخصية، إذ يطلق عليها (العبرية أو الإسرائيلية أو اليهودية أو الصهيونية). ويرجع لفظ «عبري» أو عبراني إلى سيدنا إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ، فهو أول مَنْ دُعِيَ عبراني في التوراة، ويُرجِّحون أن التسمية ناتجة عن عبور

(١) انظر عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز، تحقيق: محمد ألتنجي، دار الكتاب العربي، بيروت، ٢٠٠٥ م.
- وابن رشيق القيرواني: العمدة، تحقيق: محيي الدين عبد الحميد، مطبعة السعادة، مصر، ١٩٦٣ م.
- والجاحظ: البيان والتبيين، تحقيق: عبد السلام هارون، البابي الحلبي، مصر، ١٩٣٨ م.
- وحفني شرف: الصورة الفنية بين النظرية والتطبيق، نهضة مصر، القاهرة، ١٩٦٥ م.
- وصلاح الدين عبد التواب: الصورة الأدبية في القرآن الكريم، لونجمان، مصر، ١٩٩٥ م.
- وحسين عبد القادر: القرآن والصورة البيانية، دار المنار، القاهرة، ١٩٩١ م.

إبراهيم نهرَ الفرات[1].

وهنـــاك عديد من الآراء حول هذا المعنى، لكن هـــذا الرأي هو أقربها. بينما جاء لفظ «إسرائيلي» نســـبة إلى يعقوب عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ؛ وإسرائيل كلمة عبريـــة مكونة من (إسر) بمعـــنى عبد أو صفوة، ومن (إيل) بمعنى الإله أو الرب، وبذا يكون معنى إسرائيل «عبد الله» أو «صفوة الله»[2].

أمـــا لفظ «يهودي» فهو من الهـــود: جمع هائد، وهو التائب، وهـــاد الرجل: أي رجع وتاب[3]، وذهب بعض المفسرين إلى أن الإسرائيليين إنما سُمُّوا يهودًا حين تابوا عن عبادة العجل، ثم لزمهم الاســـم لقول مـــوسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ﴾[4]. وذهب أيضًا بعض المفسرين إلى أن نسبة يهودي تعود إلى «يهوذا» رابع أبناء يعقوب[5]، وهذا هو الرأي الراجح عندنا، كما أنه ليس صحيحاً أن كلمة «يهودي» كلمة مشتقة من «الهود» العربية.

ولا بد أن نفرِّق بين استخدام القرآن الكريم لكلمة «اليهود» وبين استخدامه لكلمة «بنـــو إسرائيل»، فالقرآن حين يتحدث عن هذه الجماعة، وتاريخهم قبل بعثته ﷺ، يطلق عليهم تسمية «بنو إسرائيل» بينما يُطلق عليهم «اليهود» حينما يتحدث عنهم في مواجهته ﷺ في المدينة بعد هجرته إليها، ويكشف عن نفسياتهم، ودسائسهم وتحريفاتهم، ويُفنّد شُبهاتهم وأقوالهم[6].

وعلى أية حـــال فإن كلمة يهودي لا تـــدلُّ على الإيمان بالله، والتمســـك بالعادات القديمة مثل «عبري»، أو فخر شـــخصي مثل «إسرائيـــلي»، وإنما كان لفظ «يهودي» يدل على ذلة الشـــعب، وخضوعهم لسكان البلاد التي سكنوها، وخجلهم بعد أن انفصلوا عن

(١) إسحاق ساكا: معنى التسميات للشعوب السامية، مجلة العربي الكويت، عدد ٩١، ١٩٦٦م، ص ١٥١.
(٢) محمد سيد طنطاوي: بنو إسرائيل في القرآن والسنة، دار الشروق، مصر، ١٩٩٠م، ص ١٢.
(٣) ابن منظور: لسان العرب، ج٣ / ٤٣٩.
(٤) الطبري: جامع البيان عن تأويل آي القرآن، دار الفكر، بيروت، ١٤٠٥هـ، ج١٣/ ١٥٢ – ١٥٣.
(٥) القرطبي: الجامع لأحكام القرآن، دار الشعب، مصر، ١٩٦٢م، ج١ / ٤٣٢.
(٦) انظر بتصرف: صلاح الخالدي، الشخصية اليهودية، ص٣٨.

إخوانهم[1]. وأظن أن هذه التسمية هي الواسعة الانتشار للدلالة على تلك الجماعة.

أما المصطلح الأخير «الصهيوني» فهو نسبة إلى صهيون، وهو اسم جبل يُشرف على مدينة القدس. والصهيونية حركة سياسية نشأت منذ الأسر البابلي لليهود (٥٨٧ – ٥٣٩ ق . م) حين أصبح الحنين إلى صهيون رمزًا لعودة المملكة الغابرة، حين بدأ اليهود يكتبون توراتهم على ضفاف الفرات، ويسجلون فيها ما أرادوه من وعود، ويحددون فيها ما طمع فيه جشع عقول مريضة من يهود في أرض المشرق العربي، خلف ستار من قول «ظهر الرب، وقال الرب، وأقسم الرب»[2].

والحقيقة أن كلمة «عبراني أو إسرائيلي أو يهودي أو صهيوني» في نهاية الأمر تشير إلى جماعة واحدة، هي المقصودة والمعنية بتلك الصفات، وهم اليهود الذين حرّفوا كتابهم المقدس «التوراة» واستبدلوا به كتاباً من وضع الحاخامات وأسموه «التلمود»[3]، هي الجماعة الفاسدة العقيدة .. المريضة النفس .. وغير المحدودة الأطماع.

نحاول أن نرصد خلال الصفحات التالية كيف استطاع التصوير القرآني الكشف عن ملامح النفسية اليهودية من خلال عدة أطر تصويرية هي: صورة التناقض في النفسية اليهودية، وصورة هوى النفس والإصرار على المعصية، وصورة العنف في مرآة اليهود، والصورة الساخرة للسلوك اليهودي، وصورة صناعة الأعداء والبحث عن الأمان، وصورة الأنا المتعالية وفقدان الثقة، وصورة التخبط العقدي والانحراف الأخلاقي.

صورة التناقض في النفسية اليهودية

النفسية اليهودية نفسية مريضة، ومعقدة، ومضطربة المزاج، وذات سلوك شاذ في التفكير والحوار والعقيدة. فاليهود متناقضون في أقوالهم وأفعالهم، وما ذلك إلا لسيطرة مظاهر القلق والاضطراب التي أحاطت بهم منذ بداية تاريخهم وحتى الآن.

والقرآن الكريم يكشف لنا عن كثير من صور هذا التناقض الذي تقع فيه هذه

(١) انظر مراد كامل: الكتب التاريخية في العهد القديم، القاهرة، ١٩٦٨م، ص ١٥.
(٢) محمد بيومي مهران: بنو إسرائيل «التاريخ»، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ١٩٩٩م، ج١ / ٤٦.
(٣) انظر فؤاد حسين: أطماع اليهود وأسفارهم، دار الكتب الثقافية، بيروت، ١٩٨٩م، ص ٤٢.

الجماعة، ويعرض ذلك من خلال تصوير قرآني بليغ، يُحدِّد الأُطر العامة لتلك النفسية، وبأكثر من وسيلة أدبية؛ ونهتم في هذا المقام باستعراض صور التناقض في نفسية اليهود كما وردت في النص القرآني، كما يمكن الاستشهاد أيضًا – على هذا البُعد النفسي – من خلال كتابهم «التوراة»، وعلى الرغم مما جاء فيها من تحريف وقلب للحقائق، إلا أن نصوص التوراة تفضحهم، وتأتي بتأكيد لما ورد في النص القرآني، وتحليله الدقيق لصورة التناقض في تلك النفسية.

قال تعالى: ﴿وَءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوٓاْ أَوَّلَ كَافِرٍۭ بِهِۦ ۖ وَلَا تَشْتَرُواْ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّٰىَ فَٱتَّقُونِ * وَلَا تَلْبِسُواْ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُواْ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٤١ – ٤٢]، وقال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُواْ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٨٩]. جاء إليهم موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بالتوراة من عند الله، وفيها الهدى والنور والإرشاد والتوجيه لهم، وأهم من ذلك جاء لهم بالبشارة بمحمد ﷺ، وهم يعرفونه، ويعلمون وقت بعثته، وحين ينزل الوحي على النبي الكريم، ويبدأ في نشر دعوته، ينقلب اليهود على أنفسهم وكتابهم، ويصبحون أول من يكفر بهذا الدين.

وهذه طِباع اليهود من تكذيب وتناقض، على عكس طِباع المسلمين وصحة عقيدتهم، فالمسلمون يؤمنون بكل ما جاء به محمد ﷺ، وأكثر من ذلك، فيؤمنون بموسى وعيسى «عَلَيْهِمَا ٱلسَّلَامُ»، ولسنا «في غير حاجة إلى تأكيد احترامنا للدين الذي جاء به موسى، ونحن ندين للإسلام الذي يفرض علينا الإقرار بنبوة موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، ويلزمنا دينًا وعقيدة أن نصدق برسالته، ونؤمن بأن نبينا المصطفى ﷺ بُعث بالحق مصدِّقًا لما بين يديه من التوراة والإنجيل»[1].

وصور التناقض في النفسية اليهودية تظهر في محاولاتهم المتكررة في استبدال الباطل بالحق، أو استبدال الذي هو أدنى بالذي هو خير كما جاء في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ

(١) عائشة عبد الرحمن: أعداء البشر، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، مصر، ١٩٦٨م، ص ١٧٣.

عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ۖ قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ۚ ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ۗ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ﴾ [البقرة: ٦١].

والعجيب أن الله – سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ – أنزل عليهم المن والسلوى؛ وهو طعام طيب كي يتنعموا في رزق الله وفضله، ولكن نفوسهم المريضة تأبى إلا الرفض والتناقض، والتمرد على نعم الله وعظيم عطاياه، فيطلبون من الطعام ما هو أدنى، فيطلبون الفول والعدس والبصل! وكأنهم يحنُّون إلى حياتهم الأولى تحت ظلم فرعون وجنوده، وهنا يكشف التصوير القرآني عن مدى تناقضهم مع طبيعة البشر السوية، التي تتمنى الخير وتطلبه وتسعى إليه، في حين نراهم يكرهونه ويطلبون غيره مما هو أدنى منه.

ومن الصور القرآنية التي كشفت عن التناقض في نفسيتهم، كونهم يكذبون على أنفسهم وهم يعلمون! وكأنهم جبلوا على الكذب والتزييف والتحريف، يقول تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ﴾ [البقرة: ٧٩].

إن التناقض الشديد في نفسية اليهود واردٌ في صور متكررة واضحة في «التوراة»، فقد جاء في سفر الخروج (٢٠: ١٦ – ١٧): «لا تسرق، لا تشهد على قريبك شهادة زور، لا تشته بيت قريبك، ولا عبده ولا أمته، ولا ثوره ولا حماره، ولا شيئًا مما لقريبك». «ونلاحظ جانب الخير في هذه الوصايا، لكنه ليس الخير المطلق، لأن النهي بالقرابة، يُوحي بإباحة المنهي عنه مع غير الأقرباء»(١).

وجاء أيضًا في التوراة في سفر التثنية (٢٣: ١٩ – ٢٠): «لا تقرض أخاك بربا ربا فضة أو ربا طعام، أو ربا شيء ما مما يُقرض بربا، الأجنبي تقرض بربا، ولكن لأخيك لا تقرض بربا».

(١) كامل سعفان: اليهود تاريخ وعقيدة، دار الاعتصام، مصر، ١٩٧٨م، ص ١٩٠.

وهكذا تظهر الازدواجية الدينية والأخلاقية في تناقض اليهود مع أنفسهم، وما جاء به التصوير القرآني عنهم، ليكشف لنا عن مرض خطير قد أصاب تلك النفوس منذ زمن بعيد « لقد كانوا يعيشون ازدواجية أخلاقية مريضة، وانفصامًا في السلوك والحياة، فالحرام فيما بين اليهود فقط، والأخلاق والفضائل لليهود فقط. فالزنى والغدر والسرقة محرمات لا يجوز لليهودي أن يقع فيها بين قومه يهود، لكنها إن تعلقت بآخرين يجوز لهذا اليهودي أن يُمارسها، بل يتقرب إلى ربه بالقيام بها»(١).

صورة هوى النفس والإصرار على المعصية

إن حياة اليهود ومعاشهم تحكمه النظرة المادية التي تعود عليهم بالنفع الشخصي، وما يتعارض مع هذا الهدف يصبح عدوًا يحق للجماعة اليهودية -بما أُوتيت من قوة - أن تحاربه وتتمرد عليه، وبعدها تدَّعي التزامها الديني والخُلقي، وتتناسى جرائمها مع أنبيائها وحكمائها ممن دعوا إلى العفة والطهارة!

إن السلوك الديني لليهود إنما يُشير في وضوح إلى مصلحتهم المادية التي تتناغم مع هواهم النفسي، حتى وإن تعارض ذلك مع تعاليم التوراة ووصايا أنبيائهم، فقد نزل اليهود في كثير من البلدان مع أطماعهم المادية، وهوى النفس في تتبُّع الثراء، حتى وإن كان الثراء من العهر والدعارة! كان اليهود يتفرقون في «البلدان تَفَرُّقَ المرض الخطير في الجسم الآمن، وسمحوا لأنفسهم بالابتذال في العفة والطهارة ... وما من حكيم يأتيهم أو يظهر بينهم ويقترب من العفة والطهارة إلا همّوا بقتله أو أسرعوا إلى طرده»(٢). قال تعالى: ﴿أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولُۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ [البقرة: ٨٧].

كشفت الصورة القرآنية عن طوية فاسدة لليهود، حتى صار الفساد عنوانًا لتلك النفسية المريضة التي تسعى بكل السُّبل إلى الكسب المادي، وحب الدنيا، والحرص على حياة، فقد رأينا في توراتهم المحرفة، أنهم يحرفون كثيرًا من تعاليمها بما يتماشى مع أطماعهم التجارية، فقد جاء فيها: «لا تأكل جثَّة ما، تعطيها للغريب الذي في أبوابك،

(١) صلاح الخالدي: الشخصية اليهودية، دار القلم، دمشق، ١٩٩٨م، ص ١٤٠.
(٢) محمد موسى الغزالي: أثر الوثنية في اليهودية، مصر، ٢٠٠٣م، ص ٥٥١.

فيأكلها أو يبيعها لأجنبي، لأنك شعب مقدس!» هل من القداسة المتاجرة في جثث الموتى، والعمل على قتل الآخرين من أجل دراهم معدودة؟![1]

لقد تَمَرَّد اليهود منذ البداية على أصل العقيدة حينما عبدوا العجل، وما ذلك إلا لهوى في أنفسهم، وزيف إيمانهم، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَٰرُونُ مِن قَبْلُ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ ۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِى وَأَطِيعُوٓا۟ أَمْرِى * قَالُوا۟ لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ﴾ [طه: ٩٠ – ٩١].

لقد استطاعت الصورة القرآنية أن ترسم لنا العناد الذي أصابهم نتيجة لتلك الأهواء، ومن ثمَّ فقد ترسَّخت في نفوسهم، فصارت عقيدة قوية لا يحيدون عنها، وأصبحت نظرتهم لكل شيء نفعية مادية، حتى مع العبادة والأمور القلبية، ويبدو أن تلك النظرة المادية التي تتناسب مع هواهم النفسي؛ كانت نتيجة طبيعية لكثرة ترحال وشتات اليهود على مَرِّ التاريخ.

وتصور الآيات القرآنية اليهود وقد أرادوا تمثالاً ليعبدوه، فصنعوا عجلاً من الذهب، صنعوه بأيديهم، لا حياة فيه، ومع هذا عبدوه! لأن أنفسهم قد تشربت من قبل بهذه الطقوس الوثنية، والأساطير والخرافات التي انتقلت إليهم من الشعوب الكثيرة التي نزلوا عليها.

ومن أجل ذلك كان إصرار اليهود على المعصية حين خاطبوا موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وسألوه أن يجعل لهم إلهًا «يصنعوه بأيديهم» ليعبدوه كما تفعل البلاد التي خرجوا منها، أو نزلوا عليها! يقول تعالى: ﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْا۟ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٨].

وهوى النفس الذي تلبَّسهم، وإصرارهم على المعصية ما هو إلا دليل على «جهل أسلافهم وغباوتهم وضلالهم. ويكفي في ذلك عبادتهم العجل الذي صنعته أيديهم من ذهب، ثم جعلوه على صورة أبلد الحيوانات الذي يُضرب المثل به في قلة الفهم، وقد شاهدوا من قبلُ أدلة التوحيد، وعظمة الرب، ثم بعدها عزموا على اتخاذ إله دون الله، فاتخذوه ونبيهم، حيٌّ بين أظهرهم لم ينتظروا موته!»[2].

(١) انظر كامل سعفان: اليهود تاريخ وعقيدة، ص ١٩١.

(٢) ابن القيم الدمشقي: هداية الحيارى، الجامعة الإسلامية، المدينة المنورة، ١٩٩٧م، ص ١٨٩ بتصرف.

ومن أجل هوى النفس التي تجنح إلى المادية وتصرّ على المعصية، نرى الصورة القرآنية ترسم لنا هذا المشهد الذي يطلبون خلاله - من موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ - أن يروا الله جهرة، ماثلاً أمـــام أعينهم شريطة بينهم وبين موسى كي يصدقوا موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، ويؤمنوا له، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾ [البقرة: ٥٥].

هذا هو هوى النفس الذي سيطر عليهم حتى صارت عقيدتهم الواضحة للعيان هي الإصرار على المعصية، فطلبهم ليس رغبة للاقتناع الديني، بل «نظرتهم المادية للدين، حيث يقيسونه بالمقياس المادي الحسي... فيلغون عقولهم، ويستخدمون حواسهم التي تصور لهم أن كل موجود لا بد أن تدركه الحواس، فإذا لم تدركه حاسة من الحواس فهو غير موجود»[1].

وكثير من نصوص التوراة التي وصلتنـــا محرَّفة بأيدي أحبارهم، كتبوها اتباعًا لهوى النفس، أو إرضاء لجماعة منحرفة، تريد أن تسوِّغ القتل أو الزنى أو الغش، ويقولون هذه تعاليم الله! والمتتبع لحال الأنبياء الذين جاء ذكرهم في التوراة لا يكاد يجد نبيًا سويًا! كلهم أصابتهم أقلام كُتَّاب «العهد القديم» في خير ما يملكون من صفات، ومن هذه الأمثلة:

نوح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: يشرب الخمر فيسكر ويتعرى ..(سفر التكوين: ٩)

إبراهيـــم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: يقف موقف المتاجر بعرضه المحتمي بامرأته ســـارة .. (ســـفر التكوين:١٢)

لوط عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: يضطجع مع ابنتيه وينجب أبناء! (سفر التكوين: ١٩)

إن هذه التحريفات والأكاذيب المشينة التي ألصقها أحبارهم بهؤلاء الأنبياء ما هي إلا محاولة فاشلة تظهر هوى النفس وميلها إلى الزنى والعهر والفحش، «وتبرير ارتكابها في حق الشعوب الأخرى، وصورة من التمزق النفسي الذي أصاب اليهود، وكأنهم يقولون للـــرب: لقد غفرت لأنبيائـــك جرائمهم، فلماذا لا تغفر لنا؟! ومـــا نحن إلا أتباع هؤلاء الأنبياء»[2]

(١) عبد الحليم حفني: التصوير الساخر في القرآن، الهيئة العامة للكتاب، مصر، ١٩٩٢م، ص ٥١ – ٥٢.

(٢) كامل سعفان: اليهود تاريخ وعقيدة، ص ١٦٤.

صورة العنف في مرآة اليهود:

اليهود قوم تشبعت طويتهم بلون الدم، ويكشف لنا التصوير القرآني عن قسوة وعنف في تعاملاتهم مع غيرهم من بني البشر على مر التاريخ، حتى صار القتل والعنف من أهم وسائلهم في تحقيق أهدافهم، وكثيرًا ما نسمعهم يطلقون شعارات كاذبة بأنهم مضطهدون، وأن الشعوب تتآمر عليهم، فاخترعوا فكرة الاضطهاد، وأخذوا في إنماء الفكرة وتضخيمها، فصارت الأكذوبة حدثًا مهمًا ومتكررًا في خطابهم، وعنوانًا بارزًا لشخصيتهم.

«وربما كان أقرب مدخل للشخصية اليهودية هو مدخل عقدة الاضطهاد، التي حملوها معهم منذ نشأتهم المبكرة، وبدلاً من علاجها بفعل الأحداث أو بفعل الزمن، فإن هذه العقدة كانت تكبر وتتضخم عبر العصور، وتنطلق منها سلوكيات مميزة لليهود، ومنها الحذر والتوجس والعزلة والعدوانية، ومحاولة السيطرة على مراكز القوة في المجتمعات والاحتيال والخداع»(١).

قال تعالى: ﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ غَضۡبَٰنَ أَسِفٗا قَالَ بِئۡسَمَا خَلَفۡتُمُونِي مِنۢ بَعۡدِيٓۖ أَعَجِلۡتُمۡ أَمۡرَ رَبِّكُمۡۖ وَأَلۡقَى ٱلۡأَلۡوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأۡسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيۡهِۚ قَالَ ٱبۡنَ أُمَّ إِنَّ ٱلۡقَوۡمَ ٱسۡتَضۡعَفُونِي وَكَادُواْ يَقۡتُلُونَنِي فَلَا تُشۡمِتۡ بِيَ ٱلۡأَعۡدَآءَ وَلَا تَجۡعَلۡنِي مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٥٠].

لقد صوّرت الآيات القرآنية نفسية اليهود خلال هذا المشهد بكل دقة، وكشفت عن أهم طرقهم في التعبير عن أفكارهم. فهم يتحينون الفرصة الملائمة للانطلاق والتعبير عن مشاعرهم، عندما يشعرون أنهم في موضع القوة والرغبة في السيطرة، فحينما صار «هارون» عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ وحده بعد رحيل موسى عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ لميقات ربه! تثور عقيدتهم المريضة، فتتطلع لعبادة إله غير الله، فكان الأمر بصناعة العجل، ويعود موسى ﴿غَضۡبَٰنَ أَسِفٗا﴾ عندما علم بهذا الجرم، ويعنِّف أخاه «هارون» خليفته في قومه، ويصرح هارون بأنهم قوم سوء كشف الموقف عن نفسيتهم المريضة، فقد استضعفوه وهددوه بالقتل، لقد صار القتل والعنف سلاحهم المُعبِّر عن نفسيتهم المتعطشة للقتل والدم والعنف والبطش بالضعفاء، فهم لا يتحركون إلا عندما يشعرون بضعف خصومهم.

(١) محمد عبدالفتاح المهدي: سيكولوجية الصهيونية، البيطاش للنشر، الإسكندرية، ٢٠٠١م، ص ٤٥.

لقد جاء في التوراة في سفر أشعياء (٥٩: ١-٨) «بل آثامكم صارت فاصلة بينكم وبين إلهكم، وخطاياكم سترت وجهه عنكم حتى لا يسمع، لأن أيديكم قد تنجست بالدم، وأصابعكم بالإثم ... أرجلكم إلى الشر تجري وتسرع إلى سفك الدم الزكي. أفكارهم أفكار إثم. في طرقهم اغتصاب وسحق. طريق السلام لم يعرفوه، وليس في مسالكهم عدل. جعلوا لأنفسهم سُبلاً معوجة. كل من يسير فيها لا يعرف سلامًا».

لقد وصلت نظرة اليهود إلى غيرهم من الأمم إلى حدٍّ أنهم يُبيحون امتصاص دمائهم، فشريعة التلمود تدعوهم إلى سفك واستنزاف دماء المسلمين والمسيحيين، لتُستخدم هذه الدماء بعد ذلك في علاج بعض الأمراض حسبما يعتقدون، وفي بعض الأعمال السحرية، وفي كثير من طقوسهم الدينية(١).

والعجيب أن اليهود يتباهون بالقتل، وكأنه قد صار عنوانًا لقوتهم، وشعارًا لنفسيتهم المريضة، حتى وإن كان القتل للأنبياء. قال تعالى: ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾ [النساء: ١٥٧]. ويبدو أن نفسية اليهود المُحِبَّة للقتل وسفك الدماء، قد دفعها إلى ذلك عدة عوامل منها: «النقص في الحس الاجتماعي والأخلاقي، الذي يُعبَّر عنه بنوع من الحذر التوجسي (الشَّك) وشيك الصلة بتوجس مرض البارانويا .. لذلك إذا أُتيحت الفرصة لليهود حرية التعبير عن عدوانيتهم، يصلون إلى درجة من الاندفاعات العدوانية المتوحشة»(٢).

قال تعالى: ﴿وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ۚ كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ ۚ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا ۚ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ [المائدة: ٦٤]. لقد انقسم اليهود على نفوسهم، فهم يتَّحدون – أو هكذا يبدو – حينما تشعر الجماعة أنها في خطر، فيجتمعون حول السلطة في حالة التهديد من الخارج، ولكنهم يظلون في حالة من التأرجح ما بين الإخلاص للجماعة،

(١) انظر ناوفيطوس: رسالة الدم المكتوم ضمن كتاب: الكنز المرصود في فضائح التلمود، عبدالله الشرقاوي، القاهرة، دار الفكر العربي،٢٠٠١م، ط٢، ص٢٩١-٣١٦.

(٢) مصطفى زيور: أضواء على المجتمع الإسرائيلي، جريدة الأهرام المصرية، ١٩٦٨/٨/٨م.

وعدم المبالاة بالآخرين، لأنهم يفتقدون الجذرية أو الانتماء»[1].

يصور القرآن لنا اليهود بأنهم قد امتهنوا تجارة القتل وسفك الدماء – وهذا حالهم إلى وقتنا الراهن – ينشرون الفتنة والعداء بين البشر «لأنهم يعتقدون أن بقية البشر يظلمونهم ويحقدون عليهم، ويغارون منهم، ويمنعونهم حقوقهم المشروعة في امتلاك كل شيء، والسيطرة على كل شيء»[2]. فإذا ما زالت أسباب العداء بين البشر؛ انشغلوا بأنفسهم المريضة، فصار العداء والتباغض بينهم، وهذا عقاب الله لهم إلى يوم القيامة.

«ولو كان ما يأتيه اليهود من جرائم بشعة عملاً طارئاً، أو دفاعاً عن النفس، ولو أن تلك القسوة التي يُمثِّلونها كانت من وحي الظروف المحيطة بهم أو من باب المعاملة بالمِثْل لرُجي أن تزول بزوال الباعث عليها، أما أن تستمد روحها من تعاليم الدين – المحرّف– وتنزل من نفوسهم منزلة اليقين .. فذاك الداء العُضال الذي لا أمل معه في دواء، ولا يُرجى منه شفاء»[3].

إن تصور القرآن الدقيق قد استطاع أن يصف اليهود ويكشف عن نفسيتهم المريضة المحبة لسفك الدماء، وإشاعة القلق والاضطراب بين البشر، ومن ثم تمكّن هذا الداء العُضال من نفوسهم، فصاروا يتقاتلون ويتباغضون إلى يومنا هذا، ونرى في العصر الحديث التجريح بين الصهيونية واليهودية؛ فالأولى «تكره اليهود وتطرح نفسها بديلاً للعقيدة اليهودية، ومن ثَمَّ نجد أن وصف الصهاينة لليهود لا يختلف في أساسياته عن وصف أعداء اليهود لهما»[4].

قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَنتُمْ هَٰؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَارِهِمْ﴾ [البقرة: ٨٥].

«إن المرض لم ينل من الأعضاء فحسب، بل تسلل إلى داخل النفس، وتمكن من

(١) رشاد الشامي: الشخصية اليهودية الإسرائيلية والروح العدوانية، عالم المعرفة، الكويت، عدد ١٠٢، ١٩٨٦م.
(٢) محمد المهدي: سيكولوجية الصهيونية، ص ١١٨.
(٣) كمال عون: اليهود من كتابهم المقدس، دار الشعب، مصر، ١٩٦٩م، ص ٤٢.
(٤) عبد الوهاب المسيري: الصهيونية والعنف، دار الشروق، مصر، ٢٠٠٢م، ص ٩.

الأفكار، إنها بالفعل حالة مرضية مستعصية، لا ينفع فيها علاج ولا حتى البتر»[1]. إن ما عليه اليهود من أحوال وأخلاق إنما هو مظهر من مظاهر جِبِلَّة خلقية راسخة يتوارثها الأبناء عن الآباء»[2].

الصورة الساخرة للسلوك اليهودي:

العقل من نِعَمِ الله علينا، لنفكر ونتدبر به عظيم خلقه، فنأخذ من الآيات والأحداث العبرة والعظة التي تعين المسلم على العبادة، وتساعده في رحلته الدنيوية بين البشر، فمن أحسن استخدامه وأدار الأمور على قدر المقام أفلح وانتصر، ومن أساء لنفسه بسوء استخدامه وخموله واندفاعه فقد خاب وخسر، واليهود قوم يدَّعون العقلانية والفكر، وقد ظهر هذا الادعاء الساخر في صفة المجادلة، وكثرة السؤال، وكل ذلك بعد أن ظهرت لهم الآيات البيّنات، وتوالت عليهم نعم الله الباهرات؛ ولكنه الجحود والحماقة والغباء، فقد لازم اليهود السلوك الفاسد منذ بداية تاريخهم.

والسلوك نتاج مشترك بين مداولات العقل وتطلعات النفس، والقرآن الكريم يصوّر تلك النفس اليهودية المريضة في سلوكها الشاذ تصويرًا ساخرًا، يقول تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾ [البقرة: ٥٥]. يصوّر القرآن الكريم اليهود صورة واضحة للغباء والحماقة، فقد شاهدوا الآيات المعجزة، وشملتهم عناية الله ورعايته بنجاتهم من فرعون وجنوده، وشقّ الله البحر لهم ليعبروا وهم ينظرون، وانفجرت لهم اثنتا عشرة عيناً بعصا موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ ليشربوا جميعاً، وأنزل عليهم المنَّ والسلوى طعاماً طيباً، وأرسل لهم موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ بالتوراة وفيها الهدى والنور، ومع كل هذه الآيات الباهرات، رأينا غباوة العقل وفساد النفس مع هذا السلوك الشاذ من الجحود لكل تلك الآيات، وبعدها يقولون: إنهم لن يؤمنوا لموسى عَلَيْهِ السَّلَامُ حتى يروا الله جهرة!

(١) محمد جلاء إدريس: صورة الإسرائيلي في التوراة، ص ٣٠.

(٢) محمد عزة دروزه: القرآن واليهود، دمشق، ١٩٤٩م، ص ٢٦.

أي نوع من الغباء هذا الذي أصاب اليهود فلا ينظرون عظيم خلقه، وجزيل عطائه، وفيض نعمه عليهم؟! وبعدها يتشككون ويتطاولون على الذات الإلهية، وكأنهم يسخرون من موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ودينه الذي جاء به، وهم في حقيقة الأمر يجعلون من سلوكهم هدفًا سهلاً للسخرية من تلك الأفكار الضالة، والنفوس المريضة، فقد أسدل العقل ستائر الغباء عليه، وأطبقت عليهم ظلمات النفس فأصبح بينهم وبين نور الحق حاجزًا .. يقول تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦].

«لقد تاهت عقائد اليهود بين الأساطير والخرافات... وانفتاح الفكر اليهودي على العقائد والموروثات البيئية، والتيارات الوافدة، والاستجابة لدين الغالب، الأمر الذي أدى إلى اضطرابه، وذبذبته بين اليقين والشك، وبين الحق والباطل»(٣). لقد أغلق اليهود عقولهم عن الفهم، وأعينهم عن البصر، وآذانهم عن السمع، وقلوبهم عن الإيمان، وقد جاء في التوراة على لسان موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ في سفر التثنية (٢٩: ٤): «ولكن لم يعطكم الرب قلبًا لتفهموا، وأعينًا لتبصروا، وآذانًا لتسمعوا إلى هذا اليوم».

حاول اليهود في عصر النبي ﷺ - ولا سيما في بداية الدعوة – أن يشعلوا نار الفتنة بين المهاجرين والأنصار، واستغلوا طائفة المنافقين في المدينة، وعندما كانت تتكشف خططهم الفاسدة، كانوا يعودون إلى وسائلهم من مكر وخداع.. والعجيب في الأمر أن اليهود كانوا يظنون أنهم يخدعون المسلمين! وهم في حقيقة الأمر لا يخدعون إلا أنفسهم، وعندها يظهر سلوكهم وقد كشف عن غباوتهم وحمقهم.

قال تعالى: ﴿وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ءَامِنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓا۟ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [آل عمران: ٧٢]. «إن رؤساء اليهود والنصارى قال بعضهم لبعض: نافقوا وأظهروا الوفاق مع المؤمنين، ولكن بشرط أن تثبتوا على دينكم إذا خلوتم بإخوانكم من أهل الكتاب، فإنَّ أَمْرَ هؤلاء المؤمنين في اضطراب، فزجّوا الأيام معهم بالنفاق، فربما ضعف أمرهم، واضمحل دينهم، ويرجعوا إلى دينكم»(٤).

(٣) أحمد أبو شنب: خصائص الفكر الديني اليهودي، مصر، د.ت، ص ١٩٩.

(٤) الرازي: التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٠م، ج٤ / ٢٥٤، وانظر محمد =

«والنفاق يتضمن بالضرورة إيذاء الغير، بل ويهدف إليه، وأمره لا يقتصر على مجاراة الغرائز وإشباع الشهوات، وإنما يتطلب فنونًا من الصناعة، وضروبًا من التشكيل والتهيئة والمظاهـــر»[1]. وكان المنافقون من اليهود «أخطر عدو للدين بما يتاح لهم من مزاولة حرب الإسلام في خفية، ومن أشد أسلحتهم الســـخرية التي يتفننون في صوغها وتوجيهها نحو كل شيء في الإسلام، لكن القرآن يَرُدُّ عليهم في صور كثيرة منها: أنهم يجعلون موقفهم من الدين ومن المؤمنين به مثيرًا للســـخرية حيث قســـموا الزمن في موقفهم من الإسلام قسمين، قســـمًا يلبسون فيه ثوب النفاق وهو النهار، وقسمًا يخلعون فيه هذا الثوب، وهو الليل حينما يجنّهم الظلام ويطمئنون إلى أنهم أصبحوا في خفية عن أعين المسلمين!»[2].

ويحق لليهودي – كما جـــاء في التوراة المحرَّفة – أن يغشّ الكفَّار «أي غير اليهود» ومحظور عليه أن يحيي الكافر بســـلام، ما لم يخش ضرّه أو عداوته، والنفاق جائز هنا، ولا بأس من ادعاء محبة الكفار، إذا خاف اليهودي من أذاه[3].

وكثيرًا ما يستعرض القرآن الكريم صورًا من حماقة اليهود، في سخرية شديدة من سلوكهم وادعاءاتهم الكاذبة، فهم يدّعون في جهل عجيب أنهم «أولياء الله، وأحباء الله، وأبناء الله، وشعب الله المختار، «إلى نهاية الأكاذيب من السفه والحمق لنفس متغطرسة مريضة، .. ونرى التصوير القرآني يأتي بهم على أعين الأشهاد، ويسألهم سؤالاً ولا يسمع منهم جوابًا، فيعرضهم في صورة الجاهل المتململ في الجواب، فما من إجابة تسعفهم في هذا المقام، فقد عمَّ الصمت، واتجهت الأعين صوب اليهود، تنتظر جوابًا وما من مُجيب! لماذا؟ لأنهم كاذبون مخادعون. أظهرهم سلوكهم الشاذ في ثياب من الحماقة لا ينفع معها سترٌ أو تضليل، فإن كانوا صادقين في كذبهم وافتراءاتهم على الله فليتمنَّوا الموت!

= سيد طنطاوي: التفسير الوسيط، دار المعارف، ٢٠٠٤م، ج١ / ٦٤١.

(١) إبراهيم علي سالم: النفاق والمنافقون، دار الشعب، القاهرة، ١٩٦٩م، ص ٧.

(٢) عبد الحليم حفني: التصوير الساخر في القرآن، ص ٩١- ٩٢.

(٣) محمد بيومي مهران: بنو إسرائيل، ج٣ / ٣٦٦.

قال تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِندَ اللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ * وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ٩٤- ٩٥]. وقال تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ * وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ [الجمعة: ٦ – ٧].

ولم يتوقف القرآن الكريم عن تصويرهم في ثياب الحماقة والجهل، حتى يكونوا مثالاً واضحًا للسخرية بين بني البشر، فلم يصبروا على أفضل الأطعمة التي أنعم الله عليهم بها من المن والسلوى، وسألوا نبيهم موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ أن يستبدل بها الفول والعدس والبصل! كما أكثروا المجادلة والجهل والتباطؤ في ذبح البقرة، وارتفع بهم جهلهم إلى عنان السماء حين استبدلوا عبادة العجل المصنوع من حُليّهم، بعبادة ربِّهم، وبكفرهم وتحريفهم التوراة بأيديهم ثم يكذبون على أنفسهم فيدّعون أنها من عند الله، فهل يبقى بعد كل هذه الصور لسلوكهم ما يشير إلى عقل أو حكمة أو إيمان؟!

صورة صناعة الأعداء والبحث عن الأمان

حين تتمرد النفس اليهودية، وتظن أنها فوق البشر جميعاً، وأن لها الحق وحدها في القيادة والسلطة والمال، وتسلك للأمر كافة السُّبل، المشروعة منها وغير المشروعة! فإنها تجلب العداء لنفسها بقصد وبدون قصد، وحينها تتحدث تلك الجماعة عن فكرة الاضطهاد، وأنها مضطرة أن تعيش حياة العزلة في اضطراب وقلق وحيرة وتوجس من كل المحيطين بتلك الجماعة، وأن عليها أن تأمن على نفسها وممتلكاتها، فتلجأ إلى عدة وسائل للتأمين، فلا تزيدها إلا قسوة وعنفًا، ورغبة جامحة في إرهاب الآخرين.

«وتزخر التوراة بالكثير من النصوص التي تقوي نزوع اليهود إلى التعصب الديني والعنصري، وتنفث روح الحقد والسخيمة على الأمم الأخرى، وتسوغ تأريث الفتن والمذابح فيها، واستئصال شأفة مناوئي اليهود أينما كانوا»[1].

قال تعالى: ﴿وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسَارِعُونَ فِي الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [المائدة: ٦٢].

وهكذا تفضح الصورة القرآنية النفسية اليهودية، وما جُبلت عليه من خُبث ونفاق،

(١) محمد بيومي مهران: بنو إسرائيل، ج٣ / ٢١١.

ومسارعة إلى العدوان والعنف، في محاولة لإشغال أعدائهم بأنفسهم، وسعيًا منهم بوسيلة أو بأخرى لكسب المال من وراء إشعال تلك الفتن، فكان اليهود منذ القِدم يمتهنون تجارة السلاح، ويشعلون الحروب بين القبائل والجماعات، ومن ثمّ تزدهر لديهم تجارة الموت. يقول تعالى: ﴿وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ۚ كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ ۙ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا ۚ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ [المائدة: ٦٤].

فاليهود قوم يعشقون العنف وسفك الدماء، وهذا ما دعى اليهود خلال تاريخهم إلى العيش في عزلة وترقب من غيرهم «فهم لا ينصهرون في المجتمعات التي يعيشون فيها، بل يتجمعون في حارات وشوارع، وأحياء خاصة بهم»(١).

لقد اتّبع اليهود منذ بداية الدعوة الإسلامية سلاح الوقيعة والنفاق، وبث روح الفُرقة والشك في نفوس ضعاف الإيمان، وفي الوقت ذاته يُشعلون نار الكراهية والحرب بين مشركي مكة والرسول ﷺ، وكانوا يَعِدُون قريشاً بالنصر على محمد ﷺ وأصحابه، ويتعاهدون على مناصرتهم، وعندما تحين الساعة، ويجتمع الأحزاب على غزو المدينة، يكشف القرآن مخططاتهم، ويُهزم المشركون ويعودون خائبين، وهنا يُصوّر القرآن هذا المشهد بكل دقة، ويرسم ملامح النفسية اليهودية قبل وبعد المعركة(٢). قال تعالى: ﴿وَأَنزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا﴾ [الأحزاب: ٢٦].

فاليهود في البداية قد صنعوا العداء مع المسلمين بمعاهدة المشركين، وظنّوا أنهم في حلٍّ من محمد ﷺ وأصحابه، وافتضح أمرهم، وجلبوا العداء لأنفسهم المريضة، وبعد انسحاب أحزاب المشركين بقي اليهود وحدهم في المدينة خائفين، لأنهم يعلمون في قرارة أنفسهم ما ينتظرهم جزاء الخيانة والعداء.. ومن الغباوة المتأصلة في نفوسهم، يظنون أنهم في أمان في حصونهم! كيف والمسلمون يحيطون بهم من كل جانب؟! زعم زائف ظاهره التعالي لإشعار من أمامهم أنهم في ثبات وقوة، وحقيقة الأمر أن نفوسهم تموج بالخوف

(١) عبد الوهاب المسيري: الأيديولوجية الصهيونية، عالم المعرفة، الكويت، عدد ٦٠، ١٩٨٢م، ص ٥٢.
(٢) انظر البقاعي: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٥م، ج٦ / ٤١٨.

والرعب والترقب، فلا تُغني عنهم حصونهم فقد فقدوا الأمان[1]. قال تعالى: ﴿وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمۡ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنۡ حَيۡثُ لَمۡ يَحۡتَسِبُواْۖ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعۡبَ﴾ [الحشر: ٢].

إن النفسية اليهودية المُحبة للعنف هي نفسية مريضة مثل مريض «البارانويا»[2] «فالكيان الصهيوني يحمل في داخله كل مشاعر العدوان نحو الآخرين، وهو يُسقط هذه المشاعر عليهم، ولذلك يظل خائفًا ومتوجسًا منهم مهما قدموا له ضمانات الأمن، بل على العكس كلما قدّموا له ضمانات جديدة تشكك في مراميها، وظن أنها خدعة جديدة، أو مؤامرة تُحاك ضدّهم»[3].

إن مشاعر الخوف والجبن التي تسيطر على نفسية اليهود تنتشر في كتابهم «التوراة»، خاصة في حربهم مع المديانيين وأهل أريحا وأهل عاي وغيرهم، ويُروى أنه في عصر القضاة، وعندما كان «جدعون» يعد العدة لمقاتلة المدْيانيين، أمره الربّ أن يُقلِّص عدد قواته البالغ عددها اثنان وثلاثون ألفًا فقال» والآن ناد في آذان الشعب قائلاً: من كان خائفًا ومرتعدًا فليرجع وينصرف من جبل جلعاد. فرجع من الشعب اثنان وعشرون ألفًا وبقي عشرة آلاف»[4].

وفي العهد القديم أيضًا أن اليهود كانت تصرخ للرب ليخلصهم من الفلسطينيين بعد أن عجزوا عن الصمود أمامهم، وحاولوا الاختباء عن أعينهم: «ولما رأى رجال إسرائيل أنهم في ضنك؛ لأن الشعب تضايق، اختبأ الشعب في المغاوير والغياض والصخور والصروح والآبار». (صموئيل أول: ١٣/ ٦-٧)

والقرآن الكريم حين يصف اليهود بالجبن والخوف والترقب، وتوقع الخطر في كل لحظة؛ إنما يصوّرهم بكل دقة من الداخل والخارج؛ فهيئتهم يرتسم عليها كل ملامح

(١) انظر الرازي: التفسير الكبير، ج١٥ / ٢٩٠.

(٢) جنون الارتياب، جنون الاضطهاد، جنون العظمة أو البارانويا (paranoia) مرض نفسي مزمن يتسم بالوهام (Delusion)، وهي أفكار ضلالية يعتنقها المريض، ويؤمن إيماناً وثيقاً بتعرضه للاضطهاد والملاحقة، ويفسر سلوك الآخرين تفسيراً يتسق وهذا الاعتقاد. انظر (http://ar.wikipedia.org/wiki).

(٣) محمد مهدي: سيكولوجية الصهيونية، ص ٥٤.

(٤) انظر محمد جلاء إدريس، صورة الإسرائيلي في التوراة، ص ١١٠، وانظر: العهد القديم، سفر قضاة: ٣/٧.

الخوف والترقب. يتوقعون الغدر والخيانة في كل لحظة! فبيوتهم قلاع وحصون عالية إحساسًا ظاهريًا بأنها ستحميهم! وقلوبهم يدب فيها الرعب والفزع، يقول تعالى: ﴿لَا يُقَٰتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍ ۚ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ ۚ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ۚ﴾ [الحشر: ١٤].

صورة الأنا المتعالية وفقدان الثقة

يزعم اليهود أن الله فضلهم على العالمين إلى قيام الساعة، لأنهم: أبناء الله وأحباؤه «ويتميزون بهذا على الآخرين ويتفاخرون عليهم، وحتى يجدوا لزعمهم سندًا يُقبلون على القرآن الكريم، فيقطعون منه الآيات، ويوظفونها شُهودًا لهم»(١).

جاء القرآن الكريم في بعض آياته على ذكر تفضيل بني إسرائيل كما جاء في قوله تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [البقرة: ٤٧]. فيهرول اليهود إلى تلك الآيات، ويتم بترها عما قبلها وما بعدها، دون مراعاة للسياق، أو أسباب النزول، ولكن يكفيهم أن يستشهدوا بها على تفضيلهم وتميزهم على العالمين، لتتغذى نفسيتهم المريضة بالإحساس بالأنا،(٢) والاستعلاء على البشر، وترديد أكاذيب «شعب الله المختار، وأولياء الله، والشعب المقدس» وغيرها من الشعارات الزائفة، التي تؤكد في المقام الأول على تضخم الأنا لدى اليهود؛ لأنهم يفتقدون الثقة بأنفسهم.

«ومن هنا كان اليهود هم العدو الأول لكل بني الإنسانية، لا فرق بين مسلم أو نصراني أو وثني، فالكل عندهم سواء، حيث يعتبرون أنفسهم عنصرًا ممتازًا خُلق للحكم والسيادة والمُلك، وكل الناس بعد ذلك مجرد خدم وعبيد خلقهم الله خصيصًا لخدمة الشعب المختار اليهود»(٣).

لقد حذر القرآن الكريم تلك الجماعة المريضة، حيث سيطر عليها مرض نفسي

(١) صلاح الدين الخالدي: الشخصية اليهودية، ص ١١٤.

(٢) الأنا المتعالية أو المتضخمة: هي كل كبر وغرور يصيب النفس الإنسانية، ويجعلها أكثر شُحاً وأنانية تجاه الآخرين، فترى في نفسها المثل الأعلى الذي يجب أن يُحتذى به، وأن لديه وحده الحق في السلطة، والقدرة على القيادة.

(٣) سعد الدين صالح: العقيدة اليهودية وخطرها على الإنسانية، دار الصفا، مصر، ١٩٩٠م، ص ١٦.

خطير سمّه إن شئت حب الذات أو العنصرية أو البارانويا، فكثيرًا ما كان القرآن الكريم يواجههم بهذه الإدعاءات الزائفة حين يقول تعالى فيهم: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ [المائدة: ٧٧]. ويقول تعالى أيضًا: ﴿قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة: ٩٤].

إن فكرة «شعب الله المختار» التي اشتعلت جذوتها في صدورهم منذ القدم سيطرت عليهم في جميع تعاملاتهم مع بني البشر من جميع الأديان والمذاهب، فلم يتركوا شعبًا إلا واستعلوا عليه، ووصل بهم التكبر والاستعلاء إلى التعالي على أحكام الله وشريعته، قال تعالى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِمْ بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ١٥٥]. إلى هذه الدرجة بلغ بهم الغرور إلى الاستعلاء على شريعته، والجدال مع رسله وقتلهم، وبعدها ينظرون إلى البشر نظرة استعلاء وكبر وغرور.

«إن اليهود حين يعتبرون أنفسهم شعب الله المختار، ويدَّعون تميُّزًا على سائر البشر، لا لشيء فعلوه ولكن لمجرد النسب، وطبيعة الخلق - حسب تصورهم - ويمكن أن نرى هذا الموقف بوضوح بشكل موازٍ في مواقف مريض البارانويا الذي يعتقد أن لديه قدرات خارقة، وأنه وحده يستطيع توجيه البشر وقيادتهم»(١).

والقرآن الكريم حين يذكر في غير موضع ﴿وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ ليس المقصود من هذا أن يتصور اليهود أنهم أفضل من العالمين سابقهم ولاحقهم، وإنما المراد «فضلتكم على عالمي زمانكم، وذلك لأن الشخص الذي سيوجد بعد ذلك وهو الآن ليس بموجود لم يكن ذلك الشخص من جملة العالمين حال عدمه ... فالشيء حال عدمه لا يكون من العالمين، وأن محمدًا ﷺ ما كان موجودًا في ذلك الوقت، فما كان ذلك الوقت من العالمين»(٢).

وبالطبع لا يعتمد اليهود على القرآن الكريم فقط ليقتطعوا منه آيات تساعدهم في

(١) محمد المهدي: سيكولوجية الصهيونية، ص ١١٧.

(٢) الرازي: التفسير الكبير، ج٢ / ٧٨، وانظر البقاعي: نظم الدرر، ج١ / ٨٦.

تعاليهم على البشر، وتضخيم الذات؛ لأنهم قد حرّفوا التوراة، وكتبوا «التلمود» على أساس من التمييز العنصري، فمثلاً جاء في التلمود «أن أرواح اليهود تتميز عن باقي الأرواح بأنها جزء من الله، كما أن الابن جزء من أبيه، ومن ثمّ كانت أرواح اليهود عزيزة عند الله بالنسبة لباقي الأرواح؛ لأن الأرواح غير اليهودية أرواح شيطانية، وشبيهة بأرواح الحيوانات»(١).

إن فقدان الثقة لدى اليهود نتيجة طبيعية للآثار المترتبة على استعلائهم على البشر، فقد رأوا أن غيرهم من بني البشر لا يستحقون حياة كريمة، أو مكانًا قريبًا من السلطة أو المال، فهذه الأمور تخصّهم وحدهم، وبالتالي فقد ضاعت الثقة عند اليهود تجاه بقية بني البشر، ومع تأصّل هذا الداء في نفوسهم من كبر وغطرسة؛ انقلب الأمر على أنفسهم، فصاروا يتعالون على بعضهم البعض حتى في العصر الحديث، ففي أرض فلسطين الآن يعيش المحتل الغاصب في عدة جماعات يهودية مقسمة وفقًا لمبادئ عنصرية مثل «الإشكيناز والسفاريم واليهود العرب»، وهذه الطوائف وغيرها الكثير يختلف قربها وبُعدها عن مراكز السلطة والمال.

إن تلك النظرة المتعالية من اليهود تجاه البشر لازمتهم منذ القِدم، وأفقدتهم الثقة بأنفسهم، وفي شريعتهم وفي حُبّ البشر لهم، لأنهم سبقوا الجميع في الشك والنفاق ونقض العهود، فازدادت الفجوة بينهم وبين غيرهم شيئًا فشيئًا، وانغلق اليهود على أنفسهم كثيرًا، وانقلبوا يتقاتلون فيما بينهم، وشاعت العداوة والبغضاء بينهم كما أخبرنا القرآن الكريم، وتفكك المجتمع اليهودي، فهو شتات من عدة مجتمعات وأجناس ولغات واتجاهات فكرية مختلفة، فليس بينهم «وحدة التاريخ، ووحدة الأرض، ووحدة الاقتصاد، ووحدة اللغة، ووحدة التكوين السيكولوجي المشترك»(٢).

ولم يترك القرآن الكريم مجالاً تحدث فيه عن اليهود إلا وصوّر نزعتهم النفسية إلى التعالي على البشر، بل وتحولهم في كثير من الأحيان إلى التعالي على بعضهم البعض،

(١) محمد بيومي مهران: بنو إسرائيل، ج٣ / ٣٦٣.

(٢) قدري حفني: الإسرائيليون من هم؟ مكتبة مدبولي، مصر، ١٩٨٢م، ص ١٣٨.

والتشكيك في قدراتهم على أساس المال والسلطة، مثال قوله تعالى في قصة طالوت: ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٤٧]. إلى أي مدى توقف فكر اليهود عند حدّ المجادلة والاستعلاء، والرفض لشريعة الله وحكمه وإرشادات نبيهم. إن الآيات القرآنية ترسم لنا لقطة تصويرية غاية في الدقة والإيجاز، فقد حددت الملامح العامة لتلك الشخصية المريضة التي أصابها الغرور، فنسيت مع من تتحدث، وتجاهلت مع من تتجادل، فقالوا: ﴿أَنَّىٰ﴾ وكأنهم يستفهمون، ولكنهم يتعجبون ويستنكرون، وما ذلك إلا لفقدانهم الثقة بأنفسهم، ثم يقررون مع أنفسهم ﴿نَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ﴾ ثم يأتي مقياس الغرور والاستعلاء والمفاضلة عندهم ﴿وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ﴾.

إن كل هذه المحاورات، وهذا الجدل، وهذا الشرط الذي وضعه اليهود هو شعور بالأنا المتضخمة، التي عادت عليهم بفقدان الثقة، وعلى الرغم من هذا الملمح النفسي المريض إلا أنه «يشكل مرجعية معرفية وعقائدية لدى اليهود، تتشكل على أساسها سلوكياتهم مع بقية البشر»[1].

صورة التخبط العقدي والانحراف الأخلاقي

لقد حرَّف اليهود دينهم، وأضافوا إلى كتابهم – التوراة – وحذفوا منها ما يخالف أهواءهم، فكانت التوراة في أول الأمر هداية ونوراً من رب العالمين، أنزلها على موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ لموعظة بني إسرائيل، فحرَّفوها ولم يسلم منها إلا القليل، ثم جاءت حاخامات اليهود فوضعوا «التلمود» وهو كتابهم الثاني من وضع أيديهم، بما يتوافق مع أغراضهم الدينية والدنيوية، وتحقيقاً وإسعاداً لجِبِلَّتِهم المنوطة بالتبديل والتحريف والتخبط العقدي، ثم كان من أمرهم أخيراً أن وضع حكماؤهم «بروتوكولات صهيون» إذ يُؤرخون

(١) محمد مهدي: سيكولوجية الصهيونية، ص ٤١.

بالمكر والخديعة الطُرق المُثلى لليهود للسيطرة على مراكز السلطة والمال(١).

لقد صوَّر النص القرآني لنا النفسية اليهودية، وما يموج فيها من متناقضات تخالف شرع الله، وتصطدم أيضًا بقوانين البشر. والقرآن الكريم حين يتحدث عن اليهود إنما يُحدد لنا الثوابت المتكررة لتلك الشخصية من اضطرابات نفسية وسلوكية وتخبط عقدي وانحراف في الدين والأخلاق، حتى إن اليهود أنفسهم لا يُخفون هذا الانحراف الديني - خاصة - من خلال تحريفهم الواضح للتوراة، وكأنهم يؤكدون معجزة القرآن الكريم في الكشف عن سوء عقيدتهم، وفساد طويتهم.

قال تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ ۚ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ ۘ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ﴾ [المائدة: ٦٤]. «وهذا خبر من الله تعالى ذكره عن جراءة اليهود على ربهم، ووصفهم إياه بما ليس في صفته توبيخًا لهم بذلك، وتعريفًا منه نبيه قديم جهلهم واغترارهم به، وإنكارهم جميع جميل أياديه عندهم»(٢). وما تَطاولُ بني يهود على الذات الإلهية إلا تعبير عن قوة «الإحساس المادي عند هؤلاء القوم من الإحساس الروحي، فهم لا يقدّرون إلا ما يرونه، ويَلْمِسون وجوده من أجل هذا التجسيد»(٣).

والقرآن الكريم حين يأتي بهذا التصوير إنما يؤكد أن اليهود قوم لديهم خلل نفسي واضح من خلال الإسقاط النفسي بما لديهم من صفات ذميمة على غيرهم ونسبتها إليه، فكان منهم أن تطاولوا على الذات الإلهية ووصفوها بالبخل. والعجيب أن التاريخ لدى شعوب العالم يضرب المثل باليهودي في البخل والشح على نفسه وغيره؛ والقرآن نصّ معجز فضح اليهود ورسم صورًا متعددة لتخبطهم الديني والأخلاقي، فهم في تناقض مستمر لا ينتهي، فمرّة يدّعي اليهود بأنهم «أحباء الله، وأولياء الله، وشعبه المختار»، ومرّة أخرى في اتجاه معاكس في تطاول على الله - جلَّ شأنه - ووصفه بالبخل والشح، فلماذا هذا التخبط العقدي والانحراف الأخلاقي؟! والجواب واضح خلال التصوير القرآني لليهود؛

(١) انظر المسيري: البروتوكولات واليهودية والصهيونية، دار الشروق، مصر، ٢٠٠٣م، ص ١١- ١٢.
(٢) الطبري: جامع البيان، دار الفكر، بيروت، ١٤٠٥هـ، ج٦ / ٢٩٩.
(٣) كامل سعفان: اليهود تاريخ وعقيدة، ص ١٦١.

فهم يُبدِّلون آراءهم وشريعتهم وأخلاقهم بما يتوافق مع رغباتهم ومصالحهم النفعية، يقول تعالى فيهم: ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَٱحْذَرُوا۟﴾ [المائدة: ٤١].

ولم تسلم الذات الإلهية في توراتهم من تطاول اليهود، وتكرارهم لقصة مصارعة يعقوب عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ مع الربّ، وأنه غلب الربّ الإله (يهوه أو إلوهيم)، «فأمسك به يعقوب ولم يتركه حتى قال له الإله: ما اسمك؟ قال: يعقوب، قال: لا يكون اسمك بعد اليوم يعقوب بل إسرائيل». (سفر التكوين ٣٢: ٢٥-٢٩).

إن هذا النص - المحرَّف بأيديهم - ليؤكد لنا تأكيدًا قاطعًا تخبط اليهود وفساد عقيدتهم، وانحرافهم الخُلقي، والسؤال الذي يتبادر إلى الذهن بعد هذه القصة.. إذا كان يعقوب قادرًا على مصارعة الربّ! والتغلب عليه! فلماذا الحرص على مباركة الربّ له؟! إنه التخبط والشطط الذي أصاب عقيدتهم، وهذا ما أكده التصوير القرآني خلال عرضه للنفسية اليهودية، وتطلعاتها المادية على حساب الجانب الديني والروحي، ويمكن أن نشاهد معًا فيما يلي تلك اللقطات القرآنية عن اليهود وتخبطهم وانحرافهم الأخلاقي.

أولاً: طلبوا من موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ أن يصنع لهم إلهًا مثل غيرهم من الأمم التي تعبد الأصنام: ﴿فَأَتَوْا۟ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ﴾ [الأعراف: ١٣٨].

ثانياً: عبادتهم لعجل مصنوع من حُليّهم، صنعه السامري: ﴿فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ فَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِىَ﴾ [طه: ٨٨].

ثالثاً: تطاولهم على الله بقولهم إن الله فقير ونحن أغنياء، وقتلهم الأنبياء: ﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ ۘ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا۟ وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ [آل عمران: ١٨١].

رابعاً: جعلوا أحبارهم ورهبانهم آلهة: ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٣٠]. ولعل التلمود أكبر شاهد على هذا التخبط العقدي والانحراف الديني والأخلاقي عند اليهود.

وبإلقاء نظرة سريعة على بعض النصوص الواردة في كتابهم «التلمود» نستطيع أن نشاهد في وضوح شديد مدى تخبطهم العقدي وانحرافهم الأخلاقي، وأنهم لا دين لهم ولا شريعة بما يتعارض مع رغباتهم النفعية، ومن هذه النصوص:

اعلم أن أقوال الحاخامات هي أفضل من أقوال الأنبياء.

إن من يقرأ التوراة بدون المشنا والجمَّارا – التلمود– فليس له إله.

إن تعاليم الحاخامات لا يمكن نقلها ولا تغييرها ولو بأمر الله.

إن مخافة الحاخامات هي مخافة الربّ[1].

وهناك عديد من الآراء التي جاء بها التلمود التي تفضحهم، وتظهر فساد طويتهم، وانحرافهم الأخلاقي، فجاء فيه: أن لليهودي الحق في أكل مال غير اليهود بكافة الطرق، فسرقة غير اليهودي عندهم ليست سرقة، وإنما هي استرداد لأموالهم من غير اليهود»[2].

إن المتتبع للنص القرآني في وَصْفِه اليهود ليجد نموذجاً فريداً من التحليل النفسي لجماعة من البشر في أدق تفاصيل حياتهم وأفكارهم ومأكلهم ومشربهم وعقيدتهم وعلاقاتهم بالآخرين، والتناقض في أفعالهم والتحذير المستمر لهم، وختاماً بسوء عاقبتهم. ولعل سورة المائدة أعظم شاهد – كما أظن – على تتابع الصور المركبة للنفسية اليهودية، وكل ما يتصل بها من تخبط عقدي وانحراف أخلاقي. قال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ اللَّهِ ۚ مَن لَّعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ ۚ أُولَٰئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ [المائدة: ٦٠].

ولعل من مظاهر الإعجاز التصويري في النص القرآني أنه في كثير من قصصه يُحدِث نوعاً من «الارتداد التصويري» حيث يأتي لنا بموجز ساطع ومحدد منذ بداية القصة، ومع هذا الموجز يأخذ الخيال في نسج خيوطه، وتوقع الأحداث التي أدت إلى تلك النهاية المتقدمة، وما ذلك إلا نوع من أنواع التشويق القصصي في النص القرآني، حيث

(١) انظر التلمود البابلي: ج١/١١٧، ومصطفى حلمي: الإسلام والأديان، دار الدعوة، مصر، ١٩٩٠م، ص ١٥٨.

(٢) أوجست روهلنج: ضمن كتاب الكنز المرصود في فضائح التلمود، عبدالله الشرقاوي، ط٢، ص١٩٤.

يجعل القارئ مشـــاركاً في تتبع خيوط الأحداث، ويصبح دائماً نشـــيط الخيال يحاول أن يتوقع الأحداث، فلماذا كان اللعن لليهود؟ ولماذا غضب الله عليهم؟ وما سبب هذا المسخ المهين؟ وكلها أسئلة تدور في ذهن القارئ حينما يقرأ هذه النهاية المتقدمة على الأحداث.

ويأتي الجواب مع الارتداد التصويري، فيأتي بصفات متتابعة مفصّله لهم، لِتكشفَ لنا الصورة كاملة لمـــا جاء موجزاً أولاً في حقّهم؛ بأنهم قوم نفاق وكذب، يعلنون الإيمان، ويخفـــون الكفر، وتناســـوا أن الله مطلع على علانيتهم وسرهم، ويســـارعون إلى الإثم والعدوان، وإشـــعال نار الفتنة والحرب بين الناس، ويتعاملون بالربا وقد نهوا عنه، حتى صار اليهود مضربًا للمثل في الربا فقد «ارتبطوا في الوجدان والواقع بالنشاطات التجارية، حتى إن كلمة يهودي أصبحت مرادفة لكلمة تاجر أو مرابي»[1] ... قال تعالى: ﴿وَإِذَا جَآءُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَقَد دَّخَلُواْ بِٱلْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُواْ بِهِۦ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُواْ يَكْتُمُونَ * وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [المائدة: ٦١-٦٢].

(١) عبد الوهاب المسيري: الأيديولوجية الصهيونية، ص ١٨.

الخاتمة

لم يهتم القرآن الكريم بقوم اهتمامه اليهود، فقد فصَّل صفاتهم وأخلاقهم وطباعهم، واستخرج المقومات الثابتة للنفسية اليهودية، وبذلك أعطى القرآن الكريم المفاتيح الحقيقية لمعرفتها، فقد عرَّى النفسية اليهودية من زيفها وخداعها، وكشف عن حقيقتها، فإذا بها نفسية مريضة شاذة تنطوي على علل وأمراض لا يُرجى منها شفاء.

كشف التصوير القرآني عن التناقض والازدواجية الدينية والأخلاقية في نفسية اليهود حيث كانوا يعيشون ازدواجية أخلاقية مريضة، وانفصامًا في السلوك والحياة، فالحرام فيما بين اليهود فقط، والأخلاق والفضائل لليهود فقط. فالزنى والغدر والسرقة محرمات لا يجوز لليهودي أن يقع فيها بين قومه اليهود، ولكنها إن تعلقت بآخرين يجوز لهذا اليهودي أن يُمارسها، بل يتقرب إلى ربه بالقيام بها.

وأظهر التصوير القرآني أن حياة اليهود ومعاشهم تحكمه النظرة المادية التي تعود عليهم بالنفع الشخصي، وما يتعارض مع هذا الهدف يصبح عدوًا يحق للجماعة اليهودية – بما أُوتيت من قوة – أن تحاربه وتتمرد عليه، وتقتله في كثير من الحالات، وبعدها تدَّعي التزامها الديني والخُلقي، وتتناسى جرائمها مع أنبيائها وحكمائها ممن دعوا إلى العفة والطهارة! والأمر في النهاية يعود إلى هوى النفس وما يتوافق مع طباعهم وأطماعهم المادية.

وقد أشار السلوك الديني لليهود إلى إعلائهم لمصلحتهم المادية التي تتناغم مع هواهم النفسي، حتى وإن تعارض ذلك مع تعاليم التوراة ووصايا أنبيائهم، فقد نزل اليهود في كثير من البلدان مع أطماعهم المادية، وهوى النفس في تتبُّع الثراء، حتى وإن كان الثراء من العهر والدعارة!

وخلص التصوير القرآني الدقيق إلى أن يصف اليهود، ويكشف عن نفسيتهم المريضة المحبة لسفك الدماء، وإشاعة القلق والاضطراب بين البشر، ومن ثم تَمَكَّن هذا الداء العُضال من نفوسهم، فصاروا يتقاتلون ويتباغضون إلى يومنا هذا، وقد تشبَّعتْ

طويتهم بلون الدم، وحبهم للقسوة والعنف في تعاملاتهم مع غيرهم من بني البشر على خلال تاريخهم، حتى صار القتل والعنف من أهم وسائلهم في تحقيق أهدافهم.

ونالت الصورة القرآنية من هيئة اليهود ومن نفسيتهم معًا، فقد أظهرت زيف ادعائهم، وألبستهم ثياب السخرية إلى يوم القيامة في عدة صور لهم وهم يتجادلون مع أنبيائهم، ويتطاولون على الذات الإلهية، وهم في صورة الخوف والرعب والفزع والاحتماء بالحصون، وعبادتهم العجل. فهم قوم يدَّعون العقلانية والفكر، وقد ظهر هذا الادعاء الساخر في صفة المجادلة، وكثرة السؤال، وكل ذلك بعد أن ظهرت لهم الآيات البيّنات، وتوالت عليهم نعم الله الباهرات؛ ولكنه الجحود والحماقة والغباء، فقد لازم اليهود السلوك المريض والعقل الفاسد.

كما أظهرت الصورة القرآنية النفسية اليهودية في تصوير فريد من الدقة والوضوح، وكشف عن نفسية مريضة متطلعة متعالية على غيرها، لديها شعور دائم بالأنا والأنانية، تحمل في داخلها كل مشاعر العدوان نحو الآخرين، وهي تُسقط هذه المشاعر عليهم، ولذلك تظل خائفة ومتوجسة منهم مهما قدموا لها من ضمانات الأمن، بل على العكس كلما قدّموا لها ضمانات جديدة تشككت في مراميها، وظنت أنها خدعة جديدة، أو مؤامرة تُحاك ضدّها. وبالتالي تحاول حماية نفسها بالمبادرة بالهجوم، والعداء مع شعورها الدائم بالخوف والترقب والحذر.

والقرآن الكريم حين يصف اليهود بالجبن والخوف والترقب، وتوقع الخطر في كل لحظة؛ إنما يصوّرهم بكل دقة من الداخل والخارج .. في حديثهم وهيئتهم وبيوتهم وقلوبهم؛ فحديثهم نفاق وكذب وتملق ومتاجرة بالدين والأخلاق، وهيئتهم يرتسم عليها كل ملامح الخوف والترقب.

لماذا يتوقعون الغدر والخيانة في كل لحظة؟ لأنهم خونة صنعوا العداء مع كل الشعوب التي نزلوا عليها، وبيوتهم قلاع وحصون عالية إحساسًا ظاهرياً بأنها ستحميهم! وقلوبهم يدبُّ فيها الرعب والفزع.

وكشـــفت الصورة القرآنية عن تلك النظرة المتعالية من اليهود تجاه البشر لازمتهم منذ القِدم، وأفقدتهم الثقة بأنفســـهم، وفي شريعتهم وفي حُبّ البشر لهم، لأنهم ســـبقوا الجميع في الشك والنفاق ونقض العهود، فازدادت الفجوة بينهم وبين غيرهم شيئًا فشيئًا، وانغلق اليهود على أنفسهم كثيرًا، وانقلبوا يتقاتلون فيما بينهم، وشاعت العداوة والبغضاء كما أخبرنا القـــرآن الكريم، وتفكك المجتمع اليهودي، فهو شـــتات من عدة مجتمعات وأجناس ولغات واتجاهات فكرية مختلفة.

واستطاع النص القرآني أن يصوّر لنا النفسية اليهودية، وما يموج فيها من متناقضات تخالف شرع الله، وتصطدم أيضاً بقوانين البشر. والقرآن الكريم حين يتحدث عن اليهود إنما يُحدد لنا الثوابت المتكررة لتلك الشخصية من اضطرابات نفسية وسلوكية، وتخبط عقدي، وانحراف في الدين والأخلاق، حتى إن اليهود أنفســـهم لا يُخفون هذا الانحراف الديني خلال تحريفهم الواضح للتوراة، وكأنهم يؤكدون معجزة القرآن الكريم في الكشف عن سوء عقيدتهم، وفساد طويتهم.

إن المتتبع للنص القرآني في وصفه لليهود ليجد نموذجاً فريداً من التحليل النفسي لجماعة مـــن البشر في أدقّ تفاصيل حياتهم وأفكارهـــم، ومأكلهم ومشربهم وعقيدتهم، وعلاقاتهم بالآخرين، والتناقض في أفعالهم والتحذير المستمر لهم، وختاماً بسوء عاقبتهم.

إن النفسية اليهودية نفسية معقدة تشابكت خيوطها، وتأصّل فيها الغدر والخيانة، وتشبَّعت باللؤم والمكر والخديعة وتطلّعها الدائم للمال والسُّلطة، وتعاليها على بني البشر لإحساسها بالدُّونية في قرارة نفسها، وانعزالها في أول الأمر بحجّة أنهم شعب الله المختار، وأن البشر عبيدٌ لهم، يتصرفون معهم كما يشـــاءون، حتى صار الصراع أبديًّا بينهم وبين بـــني البشر، فلم يهدأ لهم بال، أو تقر لهم عين؛ فقلوبهم راجفة، وعيونهم حائرة، يتوقعون الغدر في كل حين لأنهم خونة مخادعون.

المصادر والمراجع

١. القرآن الكريم.
٢. التوراة: ترجمة سهيل زكار، دار قتيبة، دمشق، ٢٠٠٧م.
٣. التلمود البابلي: مركز دراسات الشرق الأوسط، الأردن، ٢٠١٢م، المجلد الأول «نسخة pdf».
٤. إسحاق ساكا: معنى التسميات للشعوب السامية، مجلة العربي الكويت، عدد ٩١، ١٩٦٦م.
٥. أحمد أبو شنب: خصائص الفكر الديني اليهودي، مصر، د.ت.
٦. إبراهيم علي سالم: النفاق والمنافقون، دار الشعب، القاهرة، ١٩٦٩م.
٧. أوجست روهلنج: ضمن كتاب الكنز المرصود في فضائح التلمود، عبدالله الشرقاوي، القاهرة، دار الفكر العربي، ٢٠٠١م ط٣.
٨. برهان الدين البقاعي: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٥م.
٩. الجاحظ: البيان والتبيين، تحقيق: عبد السلام هارون، البابي الحلبي، مصر، ١٩٣٨ م.
١٠. حفني شرف: الصورة الفنية بين النظرية والتطبيق، نهضة مصر، القاهرة، ١٩٦٥ م.
١١. الرازي: التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٠م.
١٢. رشاد الشامي: الشخصية اليهودية، عالم المعرفة، الكويت، عدد ١٠٢، ١٩٨٦م.
١٣. ابن رشيق القيرواني: العمدة في محاسن الشعر ونقده، تحقيق: محي الدين عبد الحميد، مطبعة السعادة، مصر، ١٩٦٣ م .
١٤. سعد الدين صالح: العقيدة اليهودية وخطرها على الإنسانية، دار الصفا، مصر، ١٩٩٠م.
١٥. صلاح الدين الخالدي: الشخصية اليهودية، دار القلم، دمشق، ١٩٩٨م.
١٦. صلاح الدين عبد التواب: الصورة الأدبية في القرآن الكريم، لونجمان، مصر، ١٩٩٥م.

١٧. الطبري: جامع البيان عن تأويل آي القرآن، دار الفكر، بيروت، ١٤٠٥هـ.
١٨. عائشة عبد الرحمن: أعداء البشر، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، مصر، ١٩٦٨م.
١٩. عبد الحليم حفني: التصوير الساخر في القرآن، الهيئة العامة للكتاب، مصر، ١٩٩٢م.
٢٠. عبدالقادر حسين: القرآن والصورة البيانية، دار المنار، القاهرة، ١٩٩١ م
٢١. عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز، دار الكتاب العربي، بيروت، ٢٠٠٥ م
٢٢. عبدالله الشرقاوي: الكنز المرصود في فضائح التلمود، القاهرة، دار الفكر العربي، ٢٠٠١م، ط٢.
٢٣. عبد الوهاب المسيري: الأيديولوجية الصهيونية، عالم المعرفة، عدد ٦٠، ١٩٨٢م.
٢٤. عبد الوهاب المسيري: البروتوكولات الصهيونية، دار الشروق، مصر، ٢٠٠٣م.
٢٥. عبد الوهاب المسيري: الصهيونية والعنف، دار الشروق، مصر، ٢٠٠٢م.
٢٦. فؤاد حسين: أطماع اليهود وأسفارهم، دار الكتب الثقافية، بيروت، ١٩٨٩م.
٢٧. قدري حفني: الإسرائيليون من هم؟ مكتبة مدبولي، مصر، ١٩٨٢م.
٢٨. القرطبي: الجامع لأحكام القرآن، دار الشعب، مصر، ١٩٦٢م.
٢٩. ابن القيم الزرعي الدمشقي: هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى، الجامعة الإسلامية، المدينة المنورة، ١٩٧٧م.
٣٠. كامل سعفان: اليهود تاريخ وعقيدة، دار الاعتصام، مصر، ١٩٧٨م.
٣١. كمال عون: اليهود من كتابهم المقدس، دار الشعب، مصر، ١٩٦٩م.
٣٢. محمد بيومي مهران: بنو إسرائيل، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ١٩٩٩م
٣٣. محمد جلاء إدريس: صورة اليهودي في التوراة، مكتبة الآداب، مصر، ٢٠٠٤م.
٣٤. محمد سيد طنطاوي: بنو إسرائيل في القرآن والسنة، دار الشروق، مصر، ١٩٩٠م.
٣٥. محمد سيد طنطاوي: التفسير الوسيط، دار المعارف، ٢٠٠٤م.
٣٦. محمد عزة دروزه: القرآن واليهود، دمشق، ١٩٤٩م.

٣٧. محمد المهدي: سيكولوجية الصهيونية، البيطاش للنشر، الإسكندرية، ٢٠٠١م.
٣٨. محمد موسى الغزالي: أثر الوثنية في اليهودية، مصر، ٢٠٠٣م.
٣٩. مراد كامل: الكتب التاريخية في العهد القديم، القاهرة، ١٩٦٨م.
٤٠. مصطفى حلمي: الإسلام والأديان، دار الدعوة، مصر، ١٩٩٠م.
٤١. مصطفى زيور: أضواء على المجتمع الإسرائيلي، الأهرام المصرية، ١٩٦٨/٨/٨م.
٤٢. ابن منظور: لسان العرب، دار صادر، بيروت، ١٩٩١م.
٤٣. ناوفيطوس: رسالة الدم المكتوم ضمن كتاب: الكنز المرصود في فضائح التلمود، عبدالله الشرقاوي، القاهرة، دار الفكر، ٢٠٠١م، ط٢.

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
مقدمة البحث	٥٢
صورة التناقض في النفسية اليهودية	٥٤
صورة هوى النفس والإصرار على المعصية	٥٧
صورة العنف في مرآة اليهود	٦٠
الصورة الساخرة للسلوك اليهودي	٦٣
صورة صناعة الأعداء والبحث عن الأمان	٦٦
صورة الأنا المتعالية وفقدان الثقة	٦٩
صورة التخبط العقدي والانحراف الأخلاقي	٧٢
الخاتمة	٧٧
المصادر والمراجع	٨٠
فهرس الموضوعات	٨٣